الثالث ، فهو ما يذكره من ظهور تباشير العناصر الفنية منذ القرن الأول تلك التباشير التى عادت فبرزت فى صورة واضحة قوية فى القرن الرابع . وعلى ذلك فإن الحديث الذى يجرى على هذا النحو ليؤرخ الظواهر الأدبية بارجاعها إلى القرن الأول لايمكن أن يكون إلا حديثاً مرتكزاً على أن عهد النبوة يبدأ عصراً فى الأدب يختلف عن العصر السابق عليه ، وإلا فلماذا تكون نقطة البدء والارتكاز كما هو واضح على القرن الأول ولاتكون على الجاهلية ؟ وكل هذا كاف لبيان اقتصار العصر الجاهلى على ما هو جاهلى فحسب ، ولاشك أن تقديراً غير هذا يناقض المنطق ويخالف كل المخالفة سنن الحياة وطبائع الأشياء .

ما أبعد عصر البعثة النبوية إذن عن أن ينطوى طى الجاهلية ويندرج تحت تيارها ، وتتلاشى ملامحه المشعة بروح الإسلام فى خضمها ، فما كان لهذا العصر أن يشد الرحال ويضرب بالركب فى بيداء الجاهلية لتغمره هذه البيداء فى تيه العصر الجاهلى ، وهو الذى جاء ليحاصر هذه البيداء من كل جانب ويمحو معالم ذلك التيه فى أعين السالكين فيه والضائعين من الجاهليين . بل ما كان للجاهلية — مهما قوى شأنها واشتد عودها وسرت فى الجو أصداؤها — أن تطفىء قبساً أضاء النفوس وبعثها بعثاً جديداً . ونحن فى هذا الصدد ندرك أن المقام ليس مقام حماس دينى ، فالحقيقة الأدبية مستقاة من الدرس العلمى شىء والحماس شىء آخر ، وقد كان هذا هو تأثير القرآن فى هذه الحقائق كلها من جوانب الحياة المختلفة ، فكيف يمكن للحقيقة الأدبية أن تعيش بمعزل عن الحقائق الأخرى ، ويعيش الأدب فى عمق الجاهلية ، والأعماق كلها قد فاض فيضانها ولم يعد شىء منها ساكنا ؟ أليس من الغبن للأدب — على نحو ماوضحنا — أن نصوره أثراً جامداً لاحركة فيه ولاحياة ، واعتبار عصر النبوة عصراً جاهلياً لايعنى سوى ذلك .

لكن الذى ألجأ الدكتور زكى مبارك إلى ذلك كله إنما هو الحماس فى إثبات نشأة النثر الفنى فى الجاهلية ، ويبدو أنه كان يقف بالمرصاد لرأى